

مقصد حفظ البيئة وأثره في عملية الاستخلاف

فريدة زوزو*

مقدمة:

دعا العلي القدير الإنسان إلى الاستفادة مما في الكون من عناصر من أجل أن يؤدي وظيفة الاستخلاف على أكمل وأتم وجه؛ فقد خلقت الأرض مسخرة للإنسان بما فيها من جبال وسهول وأودية وأنهار، مع ما يحيط بها من محيطات وبحار، وغيرها من مكونات وعناصر هذا الكون؛ كالسما والكواكب والهواء المحيط بنا، والقمر الذي يضيء لنا ليلاً، والشمس بأشعتها نهاراً. وغيرها من المؤثرات والعوامل الطبيعية الأخرى كالأمطار والثلوج والرياح.

وقد حرصت أحكام الشريعة الإسلامية على تعليم وإرشاد الإنسان إلى الطرق الكفيلة بحماية عناصر الكون ومكوناته من خلال ما تطرقت له كثير من الآيات والأحاديث الشريفة التي تدعو إلى الحفاظ على المحيط الذي يعيش فيه الإنسان؛ فأبسطها ما جاء في حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن إمطة الأذى عن الطريق وعلاقتها بمفهوم الإيمان.

وتهدف هذه الدراسة إلى اعتماد النظر المقاصدي في معالجة قضايا البيئة بغرض استخلاص أوجه الرعاية والحفظ من جانبي الوجود والعدم، وإثبات أن رعاية البيئة والحفاظ عليها من المقاصد التي يرنو الشارع إلى تحقيقها، إضافة إلى اعتماد هذه الدراسة على استقراء المصادر التي تناولت الموضوع من خلال العمل المكتبي، ثم المنهج التحليلي القائم كذلك على اعتماد المقاصد إطاراً عاماً للنظر والتحليل بالنظر في

* دكتوراه في الفقه وأصول الفقه، أستاذة بكلية الشريعة وأصول الدين، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كليات الشريعة واعتبار جزئياتها.

لقد درج الباحثون في السنوات الماضية على البحث في مقاصد الشريعة على اعتبار أنها تختص بالأحكام الفقهية خاصة بالنظر إلى الكليات الخمس التي ارتبطت بالحدود؛ فكل مقصد يرتبط بالحد الذي شرع زجراً له، إلا أنه وبرجوعنا إلى التعريف الاصطلاحي للشريعة والتي تتضمن الأحكام العقائدية والفقهية إضافة إلى الآداب والأخلاق، فإنه يمكننا تفعيل دور المقاصد الشرعية لمعالجة القضايا المعاصرة الفقهية منها والاجتماعية والاقتصادية عموماً. وقضايا البيئة والأمن البيئي من المسائل الملحة في العقدين الأخيرين.

فما موقعها في مقاصد الشريعة؟ وهل رعاية البيئة والحفاظ عليها من المقاصد الخاصة التي تجتمع تحتها كل الآيات والأحاديث الدالة على وجوب حفظ البيئة والمحيط البيئي؟ أم أنها من المقاصد العامة؟ وما هي أوجه الحفاظ من جانبي الوجود والعدم؟ والسؤال الجوهرى: هل لمقصد حفظ البيئة علاقة بمقاصد الإنسانية في عمارة الأرض واستخلاف الإنسان فيها؟

ذلك ما تحاول هذه الدراسة الإجابة عنه، والعمل على توسيع النظر المقاصدي فيه من خلال جمع شتات الجزئيات المتناثرة والفروع الكثيرة المبعثرة - المتعلقة بالبيئة - في أبواب ومباحث فقهية مختلفة، والمستقرة من مجموع الآيات والأحاديث في الموضوع نفسه، للوصول بها إلى كليات لا يفترق عندها المجتهدون والباحثون.

أولاً: مدخل نظري: من التفريع إلى التأصيل الكلي

اتجه الفقهاء قديماً نحو معالجة القضايا الجزئية، والمسائل الفرعية للمكلفين، وهو الأمر الذي يلحظ بيسر في أي كتاب فقهي. وإن هذا الاتجاه بالضرورة ناشئ عن المنحى التجزيئي الذي اتجه إليه الأصوليون وهم يُعَدُّون للمسائل الأصولية، مثل مباحث الأمر والنهي، وماهية المكلف "المحكوم عليه" التي اختصت بالشخص الذي تعلق خطاب التكليف بفعله، ومبحث "سد الذرائع" الذي تركز أمثلته على النصوص

المتعلقة بالأفراد، مثل النهي عن الخطبة على الخطبة، ومنع قبول هدية المدين؛ حتى إن مبحث "العموم والخصوص" ما هو إلا خطاب لآحاد الأفراد والمكلفين أو مجموعهم، ولم يُعالج الفقه في قضايا كلية تنبني عليها مصالح الأمة العامة، وانحصر الخطاب الموجه إلى المجتمع والأمة في الفروض الكفائية فقط، وهي على قلتها وندرتها تختص بالحفاظ على مفهوم الجماعة كما هو الحال في أنواع الصلوات الجامعة عدا المفروضة علينا. وهو الأمر الذي حدا بالكثير من مفكري المسلمين إلى الدعوة إلى تجديد النظر في الخطابات التكليفية الموجهة لعموم الأمة أو أفرادها؛ فهذا الإمام محمد مهدي شمس الدين يرى أن الخطابات الموجهة إلى الأمة باعتبارها مكلفاً - في القرآن والسنة - قليلة. حتى سمي الخطاب الخاص بالأمة كفائي فقط، وهو أيضاً خاص بالأفراد؛ بل إن الخطاب التكليفي موجه للأفراد وللأمة. وهي خطابات عينية¹.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن المباحث الأصولية الجديدة تبعت خطوات التمثيل والتفريع نفسها، وهو الأمر الذي يُلاحظ بيسر في المباحث المقاصدية التي استحدثت داخل منظومة أصول الفقه، فهذا الإمام عبد الوهاب خلاف يرى أن "المقصد العام للشارع من تشريعه الأحكام هو تحقيق مصالح الناس بكفالة ضرورياتهم، وتوفير حاجياتهم وتحسينياتهم"²؛ ومن هنا يرى الأستاذ جمال الدين عطية أنه "حتى عندما بدأ الحديث عن مقاصد الشريعة اتجه النظر إلى الأفراد فقط، وهو ما يلاحظ في كليات الشريعة التي انحصرت في مجال الأفراد... فإن المنهج الأصولي أثر بالكلية على جميع مباحثه.. وغابت مصالح الأسرة، والأمة، والإنسانية"³. وهو ما حاول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أن يبحث عنه، كما فعل مع مقاصد العائلة، ومقاصد العقوبات وغيرها.

وإلى الرأي نفسه ذهب الأستاذ عبد الحميد النجار في قوله: "وربما كان الأصوليون القدامى ينحون في ضبط المقاصد وترتيبها منحي أقرب إلى التركيز على المصالح الفردية

¹ شمس الدين، محمد مهدي. حوار مع الشيخ محمد مهدي شمس الدين، قضايا إسلامية معاصرة، العدد 9-10، 2000م، ص 10.

² خلاف، عبد الوهاب. علم أصول الفقه، ط1، الجزائر: الزهراء للنشر والتوزيع، 1990، ص 197.

³ عطية، جمال الدين. قضايا إسلامية معاصرة، العدد 13، ص 115-117.

استجابة للمنحى الفقهي العام الذي تضخم فيه الفقه الفردي على حساب الفقه الاجتماعي. ولو استعرضنا الضروريات الخمسة... وهي أصول المقاصد لوجدناها بنيت على الفردية، وإن كانت في مغزاها تنحى إلى حفظ المجتمع، فليس بينها مقصد اجتماعي مباشر صريح⁴.

وهذه المسألة مهمة جداً للنظر فيها، إذ إنه عندما تركز المنهج الأصولي القديم على النظر في المسائل بصورة ومنحى تجزيئي بالنظر لآحاد الأفراد، فإن أي مبحث جديد يظهر تحت هذا العلم يُدرس بالصورة نفسها، وهو الأمر نفسه الذي حدث مع علم مقاصد الشريعة عندما ظهر؛ إذ لم يخرج هو أيضاً من منحى التجزيء، فجاءت الكليات الخمس المعروفة تخص الفرد فقط في الحفاظ على دينه ونفسه ثم عقله ثم نسله وأخيراً ماله، الأمر الذي استدعى من العلماء والباحثين حديثاً مناقشة إمكانية إضافة مقاصد جديدة تخص الأمة والإنسانية عموماً؛ "فإذا كان الترتيب المشهور للمقاصد الشرعية (الدين، النفس، العقل، العرض، المال) متسقاً مع الأحكام الفقهية الفروعية، ونابع منها، فإنه يبدو لنا من خلال استقراء التاريخ والواقع الحضاري للأمة أن هذا الترتيب غير واف بمقاصد الأمة الحضارية."⁵

في حين أن فريقاً آخر من الباحثين يجد المبرر الصائب في رأيه للمنهج الأصولي التقليدي، بأنه كان مراعيًا لظروف ذلك الزمان؛ إذ كانت الشريعة الإسلامية مطبقة ابتداءً، ثم إن الحياة الاجتماعية لم تعرف تغييراً كبيراً، فكانت الحياة بطيئة، "لذا عرف فقه الحياة الشخصية، عبادات وعادات وبعض المعاملات ازدهاراً."⁶

فلو أن المستجدات والنوازل كانت كثيرة لتحرك نحوها الفقهاء، "فالاجتهاد يُحتاج إليه في حياة متطورة متحركة.. والفقه يتعامل مع الواقع ويتبادل معه التأثير

⁴ النجار، عبد الحميد. المقننات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلامي الراهن، الجزائر العاصمة: دار المستقبل، ص 61.

⁵ الزفتاوي، عصام أنس. "نظرية المقاصد محاولة للتشغيل"، المسلم المعاصر، السنة 26، العدد 103، ص 193.

⁶ الريسوي، أحمد. الاجتهاد، ط1، دمشق: دار الفكر، 2000م، ص 63.

والتأثير، والعرض والطلب.⁷

فإذا كانت حياة المسلمين آنذاك بسيطة ولم تعرف تعقيداً ولا تطوراً ملحوظاً كالذي عليه عصرنا بتطوراته السريعة الهائلة، وكثرة نوازلها، فإن الفقهاء لن يجتهدوا في مسائل غير موجودة أصلاً، والقاعدة الأصولية تقول: "السكوت في معرض البيان بيان"، وحيث لا "معرض للبيان"، فـ "السكوت بيان".

أما الآن، فإن تفعيل دور المقاصد الشرعية لم يعد مقصوراً على الأحكام الشرعية الفقهية الفرعية والحديث عنها في باب القياس فقط؛ بل تعداه لمعالجة القضايا المعاصرة الفقهية، والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

ومن هذه المسائل قضايا البيئة والأمن البيئي، أو التحقيق في ماهية التربية البيئية في وعي أفراد المجتمع كباراً وصغاراً؛ ولا يخفى أن الشريعة جاءت بنصوص عديدة تدعو إلى حماية المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، باعتباره أحد أهم ركائز قيام الإنسان بعملية الاستخلاف والعمارة في الأرض، وهنا يتوجب الحديث عن مراعاة الوازع الديني في تحديد أهمية رعاية المحيط بخاصة، والبيئة بصفة عامة؛ فإن الخالق تبارك وتعالى عندما استخلف الإنسان وأمره بعمارة الأرض سخر له ما في الكون من جماد وكائنات حيّة لتعينه على عملية الإعمار، معتمداً في أساليب التعامل على نصوص من الوحي، وهذا ما يدعونا لاستقراء هذه النصوص وجمعها، وتبويبها على أسس موضوعية، لأنها تنطوي تحتها مجموعة متجانسة من الأحكام الشرعية التي تختص بالبيئة والعوامل المحيطة بها، وهو ما يمكن إطلاق المصطلح المقاصدي عليه، وهو أن رعاية البيئة من "المقاصد العامة"، وهي التي عرّفها الإمام ابن عاشور في قوله: "ما كان عائداً على عموم الأمة عوداً متماثلاً، وما كان عائداً على جماعة عظيمة من الأمة أو قطر"⁸ وإن حماية البيئة من المصالح التي لا تعود بالنفع على فرد أو أفراد قليلين في الجماعة، بل إن عموم المجتمع مستفيد من رعاية البيئة، وإذا ما احتل النظام والتوازن البيئي، واستنزفت

⁷ الريسوني، الاجتهاد، مرجع سابق، ص 60-63.

⁸ ابن عاشور، محمد الطاهر. مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي. ط1. عمان: دار النفائس/

كوالالمبور: دار الفجر، 1999م، ص 228.

الموارد الطبيعية ، وتلوث الجو، فإن المجتمع بأسره سيعود عليه هذا الاختلال بالدمار والهلاك؛ في صحته، ومحيطه، وعلاقته بالبيئة نفسها، وإن استقراءنا لنصوص القرآن وسنة النبي ﷺ يبين هذا الأمر بجلاء كما سيأتي لاحقاً.

ثانياً: الإطار العام لتحديد أهمية رعاية البيئة:

خلق المولى تبارك وتعالى الإنسان واستخلفه على الأرض، كما جاء في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة: 30)، وسخر له السموات والأرض وما فيهما وعليهما من مخلوقات، فقال تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: 61). وقال تبارك وتعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَبُوسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (النحل: 10-16).

فهذه آيات تفصيلية لبعض ما خلقه الله تعالى وسخره لخدمة الإنسان؛ فإنه لن يستطيع القيام بوظيفته الوجودية في الاستخلاف وعمارته الأرض من غير توفير وسائل وآليات التعامل مع المحيط ابتداءً، والتعاون بين بني آدم جميعهم تبعاً لتحقيق الاستخلاف واقعاً ملموساً، فكان لابد من تحقيق التعاون والتكامل بين شعوب العالم كافة، كما جاء في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: 13).

ومن أوجه هذا التعاون حفظ الثروات والخيرات التي تزخر بها الأرض؛ لأنها تعود على الجميع بالنفع؛ كالحفاظ على الحيوان والنبات، والحفاظ على الماء والكلاء،

والثروات الباطنية، وغيرها مما وجد على سطح الأرض وما يحيط بها، فهذا التعاون جزء مهم في تنزيل مقاصد الشارع واقعاً؛ وإن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان. ويشمل صلاحه صلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"⁹، فحفظ نظام الأمة لن يتحقق بصلاح الفرد فقط عند اتباعه لأحكام الشارع التعبدية فقط. وقضية الاستخلاف قضية يجب أن نتوقف عندها ملياً لأنها سوف تحدد دور الإنسان وواجباته تجاه بيئته.

فالاستخلاف يعني أن الإنسان وصي على هذه البيئة وليس مالكا لها، وأنه مستخلف على إدارتها واستثمارها وإعمارها، أمين عليها، "وبناءً على ذلك فليس لأحد أن يدعي أنه يملك منها شيئاً ملكاً حقيقياً فيكون له حق التصرف المطلق ولو بالإفساد والإتلاف، بل هي بمقتضى ملكية الله الملكية الحقيقية تشبه أن تكون ملكاً استخلافياً للناس جميعاً عبر الأجيال المتتابة."¹⁰

ويقضي واجب الاستخلاف بطبيعة الحال أن يتبع المستخلف ما يأمر به مالك هذه البيئة، وخالفها ومستخلفه فيها، ويقضي واجب أمانة الاستخلاف أن يتصرف فيها تصرف الأمين فيما لديه من أمانات. فالأرض أرض الله، والعباد عباد الله، ومعنى هذا أن لا ملكية مطلقة في الإسلام؛ أي أنه ليس من حق أي فرد أن يتصرف فيما يملك كيفما يشاء؛ فالملكية في الإسلام محددة بضوابط وشروط حددها الله سبحانه وتعالى، منها حسن استغلالها وصيانتها، والمحافظة عليها من أي تدمير أو تخريب، فليس المطلوب في عملية الاستخلاف أن يكون الإنسان صالحاً في نفسه فقط؛ بل أن يشيع هذا الصلاح في محيطه وما هو مسخر له، وأن لا يعيث في الموجودات المسخرة له فساداً وتخريباً، قال تبارك وتعالى مخاطباً هذه الأمة: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) (الأعراف: 56)، وقال تعالى: (وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الأعراف: 74)، وقال تبارك وتعالى أيضاً: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا

⁹ بن عاشور، محمد الطاهر. مقاصد الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص 200.

¹⁰ النجار، عبد المجيد. فقه التخصر الإسلامي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1999م، ج1، ص 155.

وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (البقرة: 205).

يقول العلامة ابن عاشور مفسراً هذه الآيات إنَّ الله تعالى: "أنبأنا بأن الفساد المحذر منه هنالك هو إفساد موجودات هذا العالم، وأنَّ الذي أوجد فيه قانون بقائه لا يظن فعله ذلك عبثاً".¹¹

وقد تكرر في القرآن النهي عن الإفساد في الأرض بعد أن خلقها الله صالحة مهياً لمنفعة المستخلفين فيها، وأعلن أن الله لا يحب الفساد، ولا يحب المفسدين، ويشمل هذا إفساد البيئة، وتلوثها، والعدوان عليها والانحراف بها عما خلقه الله لها، فهذا ضرب من الكفران بالنعم، الذي يجلب النقم، وينذر مقترفيه بعذاب شديد يوشك أن ينزل بهم كما نزل بعاد وثمود، والذين من بعدهم، قال تعالى: (الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) (الفجر: 11 — 14)¹²، والإفساد في مكونات البيئة يختلف من عنصر إلى آخر، فمنه ما يتعرض للإتلاف والتدمير، ومنه ما يتعرض للتلوث، ومنه ما يتعرض للهدر وتقويت المنافع، ومنه ما يتعرض للإسراف، وكلها عموماً تدور حول ماهية الفساد والإفساد في الأرض الذي نهي عنه المولى تبارك وتعالى.

إذا كانت البيئة ميسرة للإنسان مسخرة له بإرادة العلي القدير؛ فإنها في الوقت نفسه مخلوق من مخلوقات الله تبارك وتعالى، التي لا ينبغي للإنسان وهو خليفة الله أن يكون له أي حق في الإضرار بها، أو تعطيلها عن أداء وظيفتها التي خلقت لها في هذا الوجود، فإن المبدأ العام في الشريعة الإسلامية أن «لا ضرر ولا ضرار»¹³، والإنسان بإقدامه على الإضرار بها وتعطيل حقوقها فإنه لا محالة سترجع عليه بالضرر كما سيظهر، وبالتالي تنتفي عملية الإعمار، والقاعدة الأصولية تقول: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)؛ فإذا كان واجب الإنسان على هذه الأرض أنه مُستخلف فيها، فإن الأرض والبيئة والكون من سيساعده على القيام بمهمة الاستخلاف، فهو كذلك

¹¹ ابن عاشور، المصدر السابق، ص 201.

¹² القرضاوي، يوسف. السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، ط3، القاهرة: دار الشروق، 2002م، ص 142.

¹³ الإمام مالك، في الموطأ، كتاب الأقضية، رقم: 33، ط2، المغرب: دار الآفاق الجديدة، ص 651.

مما يوجب عليه حفظه

وسنستعرض مقومات حفظ البيئة من جانب الوجود؛ أي الطرق والكيفيات الكفيلة باستمرارية مقومات وعناصر البيئة على أداء وظائفها الكونية. وحفظها من جانب عدم؛ أي الطرق التي نحافظ بها على البيئة حتى لا يلحقها الفساد والضرر وتفويت منافعها.

ثالثاً: مقومات حفظ البيئة

وتشمل مقومات الحماية كل مرتكزات الحماية من جانب الوجود؛ أي كل الوسائل الكفيلة باستمرارية عمل عناصر البيئة على أفضل وجه.

ومن جهة أخرى، فهي تشمل مرتكزات الحماية من جانب عدم، وذلك يشمل الدفاع والحرص على إبقاء البيئة وعناصرها بعيدة عن التدخل السليبي للبشر، وحمايتها من أنواع الاستنزاف والاستدمار كافة، وأوجه إلحاق الأذى بها.

1- مقومات حفظ البيئة من جانب الوجود

أ- الحث على الزراعة والغرس:

في الشريعة الإسلامية أحكام كثيرة تدل مشروعيتها على كبير اهتمام بالزراعة والزرع، والحث عليهما؛ لما فيهما من نفع يعود على الإنسان ذاته، كالأحكام المتعلقة بالمزراعة والمساقاة وإحياء الموات؛ فهي من المسائل التي تبين مدى اهتمام الإسلام بعمارة الأرض بأسلوب الزراعة وإحياء الموات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت له أرض فليزرعها فإن لم يزرعها فليزرعها أحاه»¹⁴، وهو الأمر الذي جعل الصحابة لم يتوانوا لحظة عن الاشتغال بالزراعة والحث عليها، فهذا عمارة ابن خزيمة بن ثابت يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير، أموت غداً، فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسنها،

¹⁴ النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، بيروت: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ج3، ص 19.

فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي.¹⁵

وإن أحكام إحياء الموات لجديرة بالدراسة والبحث في أهميتها، ومعرفة الدور الذي تؤديه في توسيع المساحات الزراعية الخضراء، فإن الرسول ﷺ عندما يقول: «من أعمار أرضاً ليست لأحد فهو أحق بها»¹⁶، يدل الحديث على أن الشرع رغب في الإحياء؛ لحاجة الناس إلى موارد الزراعة، وتعمير الكون، مما يحقق لهم رفاهاً اقتصادياً، ويوفر ثروة عامة كبرى.¹⁷

وإن الإسلام بهذه الطريقة يحث على الزرع ويدعو إليه، فيشجع الحارثين والمزارعين، ويجعل من يحيي أرضاً لا تنتج زرعاً تكون له.

ففي الدعوة إلى إحياء الموات إشارة إلى "أن الإسلام دعا إلى عمارة الأرض وإصلاح فسادها، ولو أخذ الناس بمبدأ الإسلام في إحياء الموات، ونفذوا قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحيأ أرضاً ميتة فهي له»؛ لكثر الزرع ولكثر العمران، وما وجدنا تلك الأدغال الكثيرة في إفريقيا تطلب يد الإنسان لإصلاحها، وما وجدنا صحاري لا يوجد فيها عمران."¹⁸

وإن الناس وبارادهم غير الحكيمة في أنشطة حياتهم المختلفة، يحولون كثيراً من أراضيهم الزراعية الخضراء إلى صحراء، ليلقوا باللوم على الجفاف، متجاهلين التخاذل عن حماية أراضيهم، أو معاتبين حالة الفقر النكد التي يعيشونها.

ولا يمكن بأي حال نكران أن من أسباب التصحر حدوث نوبات جفاف بهذه المناطق، كما لا يمكن نكران دور الإنسان أيضاً؛ "ويتجلى دور الإنسان عملياً في ممارسات ساهمت في زيادة نسبة التصحر مثل، إزالة الغابات الطبيعية، وحرائق الغابات،

¹⁵ القرضاوي، يوسف. كيف نتعامل مع السنة النبوية: معالم وضوابط، د.ت، د.ن، ص 110.

¹⁶ البخاري، محمد بن اسماعيل. جامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: قاسم الشامي الرفاعي، ط1، بيروت: دار القلم، 1987م، كتاب المزارعة، رقم: 565، ج3، ص 226.

¹⁷ الزحيلي، وهبة. الملكية وتوابعها، دمشق: مطبعة جامعة دمشق، 1988م، ج2، ص 59.

¹⁸ أبو زهرة، محمد. التكافل الاجتماعي في الإسلام، بيروت: دار الفكر العربي، ص 45.

وسوء إدارة الري والصرف المائي مما يؤدي إلى الانجراف، وبالتالي التصحر.¹⁹

وفي إحصائية مريعة نقلتها مجلة العربي تقول: "إن التصحر يهلك 20 ألف ميل مربع من الأراضي الخضراء سنوياً، فيحيلها إلى قفار رملية جدداء، كما - أنه في كل سنة - يحاول اختراق مساحات أخرى، تقدر بحوالي 70 ألف ميل مربع، يترصد بها، متحييناً الفرصة، فإذا غفلت أعين أصحابها عن حمايتها، ضربها الجذب وأغرقها الرمال."²⁰

ب - الاهتمام بالغابات والمراعي:

من الآثار السلبية لاختفاء مساحة الغابات والمراعي وانحسارها، وفي هذا المضمار يقول د. وود: "على المستوى المحلي مشكلة كالتصحر تؤثر بشكل أولي على المزارعين الذين يعدون الأراضي الزراعية عن طريق قطع الأشجار أو حرقها، وكذلك تؤثر على الفلاحين الذين يعمدون إلى إنشاء مزارع ثابتة الموقع، إلا أن المشكلة تتضاعف آلاف المرات من خلال إنشاء المزارع الصغيرة، وبكثرة قطع الأشجار تجارياً، فإن ذلك سيؤدي إلى تسارع في ارتفاع حرارة الجو على مستوى الكرة الأرضية."²¹

ونأخذ أمثلة أخرى للنتائج السلبية لانحسار الغابات في العالم؛ إذ يختفي من الوجود كلياً بين 4000 إلى 6000 نوع حيواني كل يوم، مما يخلق نوعاً من عدم التوازن البيئي في تلك المناطق، وسيحرم خمس سكان العالم من الماء اللازم لري أراضيهم وزراعة محاصيلهم.

ومن هنا تأتي الدعوة إلى الحث على عدم استئراف أشجار الغابات بتحويلها خشباً، وزيادة الاهتمام بالمراعي والمناطق العشبية والكأ؛ والعمل على تحسين المراعي الطبيعية باستنبات أنواع من نباتات العلف؛ "وقد نجحت تجارب في تونس ومصر

¹⁹ دردار، فتحي. البيئة في مواجهة التلوث، الجزائر: دار الأمل، 2003م، ص 65.

²⁰ مجلة العربي، الإنسان والبيئة، العدد 522، مايو 2002م، ص 156.

²¹ اليوت، لورين. السياسة العالمية للبيئة، عرض وتحليل: جاسم الحسن، عالم الفكر، المجلد 30، العدد 1، يوليو

2001م، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص 280.

لاستزراع مساحات من الأراضي المالحة بالري من ماء البحر لإنتاج أنواع من العلف، كذلك نجحت دول عربية أخرى في تجارب الاستفادة من مخلفات المحاصيل بعد معالجتها بالطمر لتصبح أعلافاً جيدة.²²

وقد جاء في النهي عن قطع الأشجار حديث للرسول ﷺ، قال فيه: «من قطع سدره صوّب الله رأسه في النار.»²³ والمراد بالسدر شجرة السدر المعروفة، وهو ينبت في الصحاري، ويصبر على العطش، ويقاوم الحر، وينتفع الناس بتفويؤ ظلاله، والأكل من ثماره، إذا اجتازوا تلك الفيافي مسافرين، أو باحثين عن الكأ والمرعى... والوعيد بالنار لمن قطع سدره يدل على تأكيد المحافظة على مقومات البيئة الطبيعية لما توفره من حفظ التوازن بين المخلوقات بعضها بعضاً.²⁴

وقد أثبتت التجارب البحثية أن شجرة السدر المعمرة والمقاومة للجفاف قادرة على تحمل الحرارة والمناخ القاري الجاف.²⁵

ج- الدعوة إلى التشجير:

منذ 14 قرناً وقبل أن يحدد العالم للشجرة عيداً في الـ 21 من شهر مارس/آذار من كل سنة، فإن الإسلام وفي نصوص كثيرة دعا إلى عمليات التشجير والغرس المستمرة، فقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها.»²⁶

ولنتأمل هذا الحديث الشريف الذي يدعو فيه المصطفى -صلى الله عليه وسلم-

²² دردار، البيئة في مواجهة التلوث، مرجع سابق، ص 69.

²³ ابن حنبل، أحمد. المسند، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، رقم: 5239، صيدا: المكتبة العصرية، ج4، ص361.

²⁴ القرضاوي، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، مرجع سابق، ص 143.

²⁵ مجلة العربي، استطلاع العربي، العدد 498، مايو 2000م، ص 139.

²⁶ البخاري، محمد بن اسماعيل. الأدب المفرد، ص 479، نقلاً عن: محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث

الصحيحة، الرياض: مكتبة المعارف، 1995م، ج1، ص 38.

إلى الغرس والقيامه قد قامت، وما الفائدة التي يجنيها الغارس وهو على مشارف القيامة.

في هذا يقول الشيخ القرضاوي: "وهذا في رأيي تكريم للعمل لعمارة الدنيا في حد ذاته، وإن لم يكن وراءه منفعة للغارس، أو لغيره من بعده، فلا أمل لأحد في الانتفاع بغرس يغرس والساعة تقوم. وليس بعد هذا تحريض على الغرس والإنتاج ما دام في الحياة نفس يتردد؛ فالإنسان قد خلق ليعبد الله، ثم ليعمل وليعمر الأرض، فليظل عابداً عاملاً حتى تلفظ الدنيا آخر أنفاسها."²⁷

وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة.»²⁸

وقال أيضاً: «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، وما يرزؤه أحد إلا كان له صدقة.»²⁹

ويضاف إلى فوائد الغرس والتشجير زيادة غاز الأوكسجين في الجو، والتقليل من كمية ثاني أكسيد الكربون، أي إعادة التوازن البيئي والحراري فوق كوكبنا، والذي ينعكس بشكل إيجابي على صحة الإنسان، وخذ لذلك مثلاً عن التلوث الذي يصيبنا جراء وسائل النقل، وما يمكن أن يحدثه حزام من الأشجار حول الطرقات والمناطق السكنية في التقليل من وطأة التلوث والحرارة الشديدة، وتلطيف الجو.

وأخيراً وليس آخراً فقد اكتشف الباحثون فائدة وحقيقة أخرى عن الأشجار يحدثنا عنها المزارعون قائلين: "إنها - أي الشجرة - درعهم ضد نشاط الرياح، فهي تصد الرياح، فتحمي محاصيلهم، فلا تقتلعها أو تطمرها الرياح العاصفة، كما أن

²⁷ القرضاوي، كيف نتعامل مع السنة، ص 110.

²⁸ البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق، كتاب المزارعة، رقم: 549، ج3، ص 218، مسلم، الجامع

الصحيح، مرجع سابق ج3، ص 28.

²⁹ مسلم، الجامع الصحيح، ج3، ص 27.

جذورها الضاربة في باطن الأرض لعدة أمتار، تعمل على تثبيت التربة، فلا تجرفها الرياح الزاحفة فوقها.³⁰

2 - مقومات حفظ البيئة من جانب عدم

أ - مكافحة تلوث البيئة:

ما معنى تلوث البيئة؟ نقول إن هذه البيئة متلوثة إذا اختل توازن مركباتها؛ إذ الأصل في البيئة التوازن بين المركبين العضوي وغير العضوي، ونعني بالتوازن الانسجام والنظافة.³¹

ويعد التلوث من أكثر الممارسات السلبية التي مارسها الإنسان على البيئة باستنزافه لمواردها، وانتهاكه للتوازن الحيوي فيها، بقتله لحيواناتها، وحرقة أشجارها، وتلويث الهواء الجوي بسبب انتشار الغازات السامة الصادرة من المصانع والمركبات وآلات التنقل، ومن ثم تفاقم ظاهرة الاحتباس الحراري.³² كما يحدث التلوث نتيجة رمي نفايات المصانع في البحار، أو دفنها تحت الأرض، مما يؤدي إلى تسمم الكائنات الحية البرية والمائية، إضافة إلى ما يسببه غرق ناقلات النفط في المحيطات³³، أو ما تلقىه من مواد ونفايات سامة؛ فالتلوث تتنوع مصادره ومواضعه، وهو لا يحدث للهواء فقط، فهو تلوث في الجو، وتلوث في الأرض، وتلوث في المياه، ونتائجه السلبية لا

³⁰ مجلة العربي، الإنسان والبيئة، العدد 522، مايو 2002، ص 153.

³¹ حليمي، عبد القادر. "تلوث البيئة"، مجلة "الأصالة"، الجزائر: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، السنة الرابعة، العدد 24، مارس 1975م، ص 63.

³² عند سقوط أشعة الشمس على سطح الأرض تبعث الأشعة تحت الحمراء عن هذا السطح، وتقوم غازات الغلاف الجوي بامتصاص الأشعة تحت الحمراء والاحتفاظ بالحرارة في هذا الغلاف وتدفعه سطح الأرض بالصورة المعروفة. وتسمى هذه الظاهرة بالاحتباس الحراري. green effect. ومن غير ذلك يمكن أن تنخفض درجة حرارة سطح الأرض دون 15 درجة سليوس تحت الصفر. لكن تزايد نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون الناتج عن استهلاك مشتقات البترول والفحم الحجري في المصانع، وأدوات التنقل، وتزايد غازات الميثان والكلور والفلور، يؤدي إلى تفاقم ظاهرة الاحتباس الحراري وارتفاع درجة حرارة سطح الأرض بطريقة تهدد التوازن البيئي.

³³ نقلت قناة الجزيرة الفضائية يوم الثلاثاء: 28 فبراير 2006م، خبراً مفاده أن ناقلة نفط من بنما تسرب منها 3 آلاف طن نفط في قناة السويس المصرية، ولنا أن تصور آثاره على الكائنات البحرية، وعلى سكان تلك المناطق.

تعود على الكائنات الحية فقط، بل على الإنسان نفسه؛ فقد أثبتت دراسة "أن عدد حالات الوفاة بسبب تلوث الهواء بمقدار 180 ألف حالة سنوياً، و75 مليون مصاب بالربو كل عام في الصين وحدها!"³⁴

ب - الدعوة إلى تنظيف المحيط وحق الناس في بيئة نظيفة:

من حق الإنسان أن يعيش في جو نقي، وبيئة نظيفة؛ فإذا مشى في الطريق لم يعق سيره حجر أو قمامة، أو ماء قذر، وإذا ذهب للراحة والاستحمام لم تضايقه رائحة قذرة قرب الشجرة التي يستظل تحتها، أو على شاطئ البحر الذي يهنا بالنوم قرب، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إمطرة الأذى عن الطريق صدقة»³⁵. وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا اللعائن»، قالوا: وما اللعائن يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»³⁶.

ومعنى الحديث أن المتخلى في طرقات الناس وأماكن جلوسهم متعد عليهم، مؤذ، ظالم لهم. فهو داخل في لعن الله للظالمين، وشأن الناس عندما يجدون القذر في طرقاتهم وأماكن جلوسهم أن يلعنوا من آذاهم بذلك وهم مظلومون منه، فالتخلى في طريق الناس أو في ظلهم كبيرة من الكبائر... وتشمل الطرق إلى البيوت، والأسواق، والقرى، وموارد الماء، وكل مكان اتخذوه للجلوس فيه لمنفعة من منافعهم فيدخل في ذلك الأسواق والمتزهات وغيرها.³⁷ فهنا رأينا أن الحديث قد جمع أمرين: أولهما النهي عن التخلى وقضاء الحاجة البشرية من بول أو غائط في الأماكن التي يرتادها الناس عموماً، وثانيهما أن عقاب من سيقوم بهذا الفعل المشين هو اللعنة من الناس ومن ثمة الدخول في زمرة الملعونين من الظالمين.

وقد جاء أيضاً في السنة النبوية في المضممار نفسه النهي عن البول في الماء الراكد،

³⁴ مجلة العربي، الإنسان والبيئة، العدد 500، يوليو 2000م، ص 125.

³⁵ البخاري، الصحيح، كتاب: المظالم والغصب، رقم: 685، ج3، ص 275.

³⁶ مسلم، الجامع الصحيح، ج1، ص 156. أحمد، المسند، رقم: 25، ج1، ص 7.

³⁷ ابن باديس، عبد الحميد مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ط1، الجزائر: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، 1983م، ص 147.

والتبرز في الطريق أو في الظل أو موارد المياه. قال رسول الله ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه.»³⁸ ونهى النبي ﷺ عن البول في الماء الراكد.³⁹

وهنا يُلقى على عاتق مصالح التنظيف في البلديات والدوائر مسؤولية تنظيم هذه المسألة بإنشاء المراحيض العمومية داخل المناطق العمرانية، وإقامة أماكن الاستراحة في الطرقات السريعة ما بين الولايات لئلا يجد المسافر حرجاً في قضاء حاجته، "وأنت ترى أن الأحاديث النبوية المتقدمة قد انتظمت ذلك التنظيف بالترهيب من التقذير وكل مؤذ، والترغيب في إزالتها، فوضع الإسلام بذلك أصل المصلحة قبل أن يعرفها تمدن اليوم."⁴⁰

ج- اتباع الطرق المثلى لتصريف المياه المستعملة ونفايات المصانع:

تشهد كثير من البلاد المتقدمة، وعدد قليل من الدول النامية عمليات تدوير وإعادة استخدام المخلفات؛ بأنواعها الزجاجية، والورقية، والبلاستيكية، وما عدا هذه النفايات فإنه يتلف حرقاً أو دفناً في الأراضي، ونضرب مثلاً صغيراً جداً لما تسببه الأكياس البلاستيكية التي نستخدمها في حياتنا اليومية عند التسوق من ضرر على البيئة وصحة الإنسان، الأمر الذي دعا وزير البيئة وهيئة الإقليم الجزائري إلى أن يدق ناقوس الخطر، وهو الأمر الذي دعاه لتنصيب لجنة للبحث في إمكانية إنتاج أكياس قابلة للتحلل أو التجزئة.⁴¹

فهذه الإجراءات وغيرها تنصب كلها في جهود صون البيئة، والاقتصاد في إنتاج المخلفات.

وكذا الأمر بالنسبة لمياه الصرف الصحي التي يعاد تكريرها ومعالجتها لتستخدم من جديد، خاصة في مجال سقي الزراعات التجميلية.

³⁸ مسلم. الجامع الصحيح، مرجع سابق، ج1، ص162.

³⁹ مسلم. الجامع الصحيح، مرجع سابق، ج1، ص162.

⁴⁰ ابن باديس، مجالس التذكير، مرجع سابق، ص148.

⁴¹ جريدة الشروق اليومي، الجزائر، الخميس 1 ديسمبر 2005م، العدد 1549، ص4.

فهذه عمليات جد فعالة، ومهمة للمحيط البيئي الذي يستفيد استفادة كبرى من ذلك، لأن عدم دمج هذه العمليات في التنمية الاقتصادية من شأنه الإضرار بالبيئة، بأن ترمى النفايات، وتصرف المياه غير الصالحة إلى البحار والأنهار، أو تدفن في الأراضي، ومن ثم يظهر ضررها على المزروعات أو في إهلاك الكائنات البحرية؛ وهو ما سيعود بالضرر على صحة الإنسان نفسه لأنه سيستهلك ثمار المزروعات وكائنات البحر!

د - حماية الموارد الحيوانية من الاستنزاف والانقراض:

في الوقت الذي اهتم فيه الإسلام بالنباتات فقد اهتم أيضاً بالحيوانات؛ فإذا كان صيد الحيوانات برية كانت أم مائية حلالاً طيباً، فقد نهى الإسلام عن قتله إن كان لغير منفعة، أو كان فيه إسراف يهدد وجود هذه الحيوانات التي لم تخلق عبثاً.

روي أن رسول الله ﷺ قال: «ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها، إلا يسأله الله عز وجل عنها». قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: «أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها ويرمي بها».⁴²

وروي عن رسول الله ﷺ أيضاً قوله: «من قتل عصفوراً عبثاً، عَجَّ إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني منفعة».⁴³

وقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم».⁴⁴

ولنا أن نتساءل: هل حقاً في هذا الحديث ما يدل على فكرة المحافظة على بعض الأنواع من الحيوانات من الانقراض؟

قد يبدو هذا صحيحاً إذا ما رأينا شرح الحديث عند الإمام الخطابي الذي قال: "معناه أنه كره إفناء أمة من الأمم، وإعدام جيل من الخلق حتى يأتي عليه كله، فلا يبقى منه باقية، لأنه ما من خلق لله تعالى إلا وفيه نوع من الحكمة، وضرب من

⁴² النسائي، أحمد بن شعيب. *الاجتبى من السنن*، كتاب الضحايا، باب: من قتل عصفوراً بغير حقها، رقم، 4462.

⁴³ النسائي. *الاجتبى من السنن*، مرجع سابق، كتاب الضحايا، باب: من قتل عصفوراً بغير حقها، رقم، 4463.

⁴⁴ أبو داود، سليمان بن الأشعث. *سنن أبي داود*، رقم: 2845، ج3، 108.

المصلحة⁴⁵. وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله."⁴⁶

ولنا في قصة الرجل الذي دخل الجنة لأنه سقى كلباً كان يلهث من شدة العطش،⁴⁷ وقصة المرأة التي أدخلت النار لأنها حبست هرة ولم تطعمها أو تتركها تأكل من خشاش الأرض.⁴⁸

وقال رسول الله ﷺ: "إذا سافرت في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرت في السنة فبادروا بها نقيها، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق فإنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل."⁴⁹

تبين لنا الأحاديث النبوية الطرق المثلى للتعامل مع كائنات الله تعالى على وجه هذه الأرض، فلم يفرق الرسول ﷺ بين حيوان كبير وآخر صغير، بل إنه شمل بالذكر المخلوق الصغير مثل النملة، ثم العصفور الذي لا حول له ولا قوة، ولم ينس دابة الإنسان التي يستخدمها في ترحاله وتحواله أن تأخذ نصيبها من الراحة.

هذه هي سلوكيات الإسلام تجاه الكائنات الحية في بيئتنا الحيوية، سلوكيات نسعى بها للمحافظة على هذه البيئة وصيانتها، فهل نتأسى بهذه السلوكيات الإسلامية،

⁴⁵ القرضاوي، السنة مصدر للمعرفة، ص 147 نقلا عن معالم السنن للخطابي، ج، ص 132.

⁴⁶ البخاري، صحيح البخاري، في كتاب الجهاد والسير، رقم: 1200، ج، ص 480؛ ومسلم في جامعه، ج، ص 43.

⁴⁷ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل يمشي بطريق فاشتد عليه العطش فوجد بئراً فترل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغني، فترل البئر فمالأ خفيه فأمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له"، فقال الصحابة: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: "في كل ذات كبد رطبة أجر." صحيح البخاري، كتاب: المساقاة، رقم: 588، ج، ص 237؛ وأحمد في سننه، رقم: 2550، ج، ص 24.

⁴⁸ قال رسول الله ﷺ: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتهها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.» صحيح البخاري، كتاب المساقاة، ج، ص 237، ومسلم في جامعه، ج، ص 43.

⁴⁹ مسلم، الجامع الصحيح، مرجع سابق، ج، ص 54.

ونغرس في أحيالنا والأجيال القادمة الوعي البيئي الإسلامي بأهمية زراعة النباتات وحماية الحيوانات والمحافظة عليها من الانقراض والاستنزاف؛ فهي الكفيلة بالحفاظ على التنوع الحيوي؟

هـ - الأمن البيئي:

ظهر هذا المصطلح بعد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية في مدينة (ريو دي جانيرو) عام 1992م، "وهو مصطلح جديد يدور حول محتواه الكثير من الجدل، ويتضمن البيئة والأمن، والعنف والحروب كمسببة للدمار البيئي؛"⁵⁰ لأنه لا يخفى على أحد الآثار السلبية والاستدمارية للاستعمار والاحتلال والحروب الأهلية على الحرث والنسل، فهي بقدر ما تقتل من بشر، فإنها تهلك الأراضي الزراعية التي تتحول إلى معازل للجنود، وسياسة الأرض المحروقة تعني استغلال البيئة كسلاح شامل للدمار، إضافة إلى حركة الآليات العسكرية على التربة المهشة، وجراء حفر الخنادق.

كما لا يخفى على أحد ما تخلفه هذه الحروب وراءها من ألغام ومتفجرات مزروعة في الأراضي التي تدمرها وتغير تركيبها الكيميائية، ناهيك عما يحدث للحيوانات والكائنات الحية التي لا تأمن حياة الرصاص والمدافع، وما تعانيه عند سكب وحرق آبار النفط، كما حدث في حربي الخليج الأولى والثانية، ويحدث في حروب كثيرة أخرى قائمة.

وإن كل ما يترافق والحروب له كثير من الآثار على البيئة في تلوث المياه والأرض، وتلوثها بالهواء المفعم برائحة القتل والتعفن، وما يشيعه من أمراض تفتك بالبشر، وتدهور صحة العباد. ورغم أن الحرب الباردة انتهت فإنها خلفت وراءها في صحراء نيفادا الأمريكية عنصراً كيميائياً هو عنصر "اليود 131" من مخلفات التفجيرات النووية، هذا العنصر الذي يتسبب في حالات من سرطان الغدة الدرقية بين الأمريكيين، يتراوح عددها بين 11300 و212 ألف حالة، لا يعرف أصحابها أنهم مرضى.⁵¹

⁵⁰ اليوث، لورين. السياسة العالمية للبيئة، مرجع سابق، ص 305.

⁵¹ مجلة العربي، "الإنسان والبيئة"، العدد 500، يوليو 2000م، ص 128.

وقارن هذه الحال مع وصية الخليفة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- لقائد الجيش يزيد بن أبي سفيان عندما قال له: "إني موصيك بعشر: لا تقتل امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرمًا، ولا تقطعن شجراً مثمرًا، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه، ولا تغل، ولا تجبن."⁵²

و - سن القوانين والتشريعات البيئية الرادعة:

بعد ظهور المشكلات البيئية الكبيرة المحدقة بمستقبل الإنسان على وجه الأرض، تزايدت النداءات المُنبهة على الأخطار الحالية والمستقبلية التي يتسبب بها الإنسان نفسه على حياته وصحته، ومحيطه. فعقدت الاتفاقات الدولية بين دول العالم كلهم للحد من الظواهر السلبية لتعامل الإنسان مع محيطه، وشرعت قوانين صارمة تُجرّم تلك الانتهاكات.

وإن للحكومات دوراً كبيراً وفعالاً في سن التشريعات والقوانين التي تحمي حق البيئة من ظلم الإنسان؛ "فإن النشاط الآدمي يغير البيئة بشكل سلبي، وبشكل لا يماثل ما جرى في العصور الأخرى، فالجهود الكبيرة والمبالغ فيها لاستغلال الموارد الطبيعية، وصرف الطاقة على أنماط غير مقننة وليست ضرورية للحياة، والتصنيع، والإسهاب في النمو الاقتصادي. كل ذلك مرتبط بدمار البيئة في حدود الدولة."⁵³

ولهذا فإن دور الحكومات يجب أن يظهر بقوة في ردع أعمال الاستنزاف وتخریب الموارد الطبيعية، وأوجه استغلالها الاستغلال المدمر لها. فإن الردع والعقاب هما الكفيلان بترهيب الناس، وفي غياب قوانين العقوبات فإن ظلم الإنسان لمحيطه سيستمر دون هوادة.

⁵² الإمام مالك. الموطأ، كتاب الجهاد، باب: النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، رقم: 995، أنظر: شرح

الزرقاني على موطأ الإمام مالك، دار الفكر، ج3، 12.

⁵³ اليوث، لورين. السياسة العالمية للبيئة، ص 279.

رابعاً: الوعي بأهمية التربية البيئية وعلاقتها بالاستخلاف

ولا يتوقف الأمر في حماية البيئة عند سن القوانين وردع الإنسان بالقوة والعقاب ضد سلوكياته الضارة. لمحيطه؛ بل إن الناشطين دعوا إلى ضرورة نشر الأخلاق البيئية، ليس بقصد احترام قوانين البيئة، بل قصد توجيه سلوك الإنسان نحو التعامل الصائب مع محيطه الذي يعتبر هو نفسه جزءاً منه، فإن أضر به فهو في الحقيقة يضر نفسه.

فالمقصود بالوعي بأهمية التربية البيئية: الإحساس الذاتي بأهمية البيئة ونفعها للإنسان، حيث إنها تقوم بتزويده بمقومات الحياة وعوامل البقاء، ذلك ليتسنى له أداء مهمته الاستخلافية على ظهر هذه البسيطة، تحقيقاً للعبودية لله عز وجل وعمارة الأرض. أي أن "الأخلاق البيئية توجه سلوك الفرد داخلياً، ودون رقيب، أو حسيب لاحترام البيئة والتقيدها وتنفيذها".⁵⁴

والمطلوب أن يتوسع نطاق هذا الوعي لدى الأفراد والجماعات والحكومات؛ أي أن يتوافر لدى الأفراد، وأن يتوافر أيضاً لدى المسؤولين والدولة، كما ينبغي أن يتوافر كذلك على المستوى الإقليمي والعالمي. ومع أهمية تحديد الطرق المختلفة لرعاية البيئة وحفظها من جانبي الوجود والعدم، فإن من المهم أيضاً استحضار الوازع الديني عند تعاملنا مع البيئة ومحيطنا الخارجي، فعقيدة المسلم هي التي تحركه اتجاه تعامله مع محيطه، بحيث يتذكر الإنسان أنه خليفة الله في هذه الأرض، "وعلى هذا المعنى تكون غاية الحياة الإنسانية في نطاق عقيدة الخلافة هي أن يقوم الإنسان بحركة تعمير في الأرض وفق أوامر الله ونواهيه".⁵⁵

فالتربية البيئية توجه سلوك الفرد عموماً نحو التعامل الإيجابي مع محيطه حتى لا يعود عليه فعله بالضرر؛ في حين أن ربط هذه التربية بعملية الاستخلاف ستغير من المفهوم الدنيوي للتربية البيئية إلى مفهوم ذي أبعاد وتوجهات أخروية، في عدّ البيئة

⁵⁴ القادري، سليمان أحمد. "مستوى الأخلاق البيئية لدى معلمي العلوم للمرحلة الثانوية في محافظة إربد"، مجلة

العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، عدد 16، ديسمبر 2001م، ص ص 7-28.

⁵⁵ النجار، عبد المجيد. الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي، التجديد، ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، العدد

الأول، يناير 1997م، ص 93.

ورعايتها من أسباب نفوس الحضارات، فهي المسرح الذي سيشهد قيام الحضارة، وهي أساس مهم في تعمير الأرض وتحقيق الاستخلاف على هذه الأرض. ومن هنا يظهر الجانب العقائدي الذي يحرك الإنسان المسلم في تعامله مع البيئة؛ فإنه لا يتعامل معها بالمعنى المادي الدنيوي فحسب، حيث يتذكر أن المولى تبارك وتعالى سخرها لصالحه ولأجل أن ينتفع بها فيعود عليه النفع أولاً وآخراً، بل إن انتفاعه بها يكون في الأساس تحقيقاً وامتنالاً لأوامر الخالق في الاستخلاف. فدون الانتفاع بموارد الأرض الطبيعية لن يستطيع الإنسان تعمير محيطه وبناء حضارته، ومن ثم لن يتحقق له اتباع أوامر الخالق.

وهنا لا بد من تشجيع الأفراد والمجتمعات على ضرورة تحويل الاهتمام برعاية البيئة من اهتمام قانوني وفطري إلى اهتمام عقائدي شرعي؛ ومعنى هذا أن يتحول الوازع القانوني المدني والوازع الفطري الجبلي إلى وازع ديني، ومنه سيتحول العمل الدنيوي إلى حكم شرعي يأخذ الإنسان عنه أجراً وثواباً عند حصوله، وهو ما فعله النبي عليه الصلاة والسلام مع صحابته رضوان الله عليهم.

فعلى مستوى الأفراد، وعلى المستوى البسيط جداً، رأينا أحاديث الرسول ﷺ تنهى عن التعدي على حقوق الناس، أفراداً وجماعات في بيئة نظيفة؛ بأن نهى عليه أفضل الصلاة والسلام عن البول في المياه الراكدة، والتبرز في الطرقات، وقوله ﷺ في إعطاء الطرق حقها عند الجلوس: «إياكم والجلوس بالطرقات»، قالوا: يا رسول الله، ما بدّ لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».⁵⁶

وأما على مستوى الجماعات فلقد أصبحنا في حاجة ماسة لتكثيف الجهود نحو دراسة المعرفة البيئية بكل فروعها وتخصصاتها، وتأصيل وتعميق التربية البيئية في المنظور الإسلامي في كل ما يخص البيئة ومشكلاتها على مستوى المناهج الدراسية في المدارس

⁵⁶ أحمد. المسند، مرجع سابق رقم: 4815، ج4، ص256.

والجامعات، وفي خطب الجمعة، وعلى مستوى وسائل الإعلام المختلفة، لتنشئة أجيال جديدة قادرة على التعامل مع بيئتها على هدي من الشريعة الإسلامية، فلا يتأتى تحصيل ثمار جيدة إلا إذا تحقق "تعاون جميع أجهزة الدولة للقيام بحملة منظمة ومشتركة لحماية البيئة، ويمكن أن يكون لوزارة الإعلام، ووزارة التربية دور كبير في غرس قيم التربية البيئية ومفاهيمها، والتأثير على السلوك البيئي لمختلف أفراد الشعب،"⁵⁷ كترشيد استهلاك المياه، وحفظ الموارد المائية وصيانتها، إضافة إلى غرس مبادئ التربية البيئية بين تلاميذ المدارس، وتوعية العامة بحق أفراد المجتمع في بيئة نظيفة، وحق البيئة ذاتها في أن تُحترم لأن خالقها هو رب الكون جميعاً، حتى وإن استخلفنا فيها، وسخرها لنا، ولكن ليس بيد مطلقة التصرف، بل بيد الخليفة والراعي على شؤون ما استخلف فيها.

الخاتمة:

ولعل ما يمكن التأكيد عليه في ختام هذه الدراسة مجموعة نتائج؛ أهمها: بيان أهمية الحفاظ على البيئة، وذلك من خلال تحقيق أمرين: أولهما التسخير الأمثل للبيئة لصالح الإنسان والبشرية جمعاء في الاستفادة منها، ومن ثم القيام بالأمر الآخر وهو الاضطلاع بالوظيفة الوجودية في الحياة الدنيا والمتمثلة في الاستخلاف الذي يتحقق بعبادة الله تعالى وإعمار الأرض، وهذان الأمران يمكن إدراكهما بوضوح إذا تم تناول موضوع حفظ البيئة ضمن إطار مقاصد الشريعة وقواعدها العامة، التي تضبط المحافظة عليها باعتبار البيئة أحد المقاصد العامة؛ فإن حمايتها هي من المصالح التي لا تعود بالنفع على فرد أو أفراد قليلين في الجماعة فحسب، بل إن عموم المجتمع يستفيد من رعاية البيئة، وإذا ما اختل النظام والتوازن البيئي، واستنزفت الموارد الطبيعية، وتلوث الجو فإن هذا الاختلال سيعود على المجتمع بأسره بالدمار والهلاك؛ في صحته، ومحيطه، وعلاقته بالبيئة نفسها.

ومن جهة أخرى فإن الباحثة ومن خلال ضبطها المفاهيم الأساسية للدراسة،

⁵⁷ وهي، صالح محمد. البيئة من منظور إسلامي، ط1، دمشق: دار الفكر، 2004م، ص 59.

بيّنت أسباب انحسار المنحى الفقهي الكلي قديماً والتركيز على المنحى التجزيئي، والتأكيد على تفعيل دور المقاصد الشرعية الذي لم يعد مقصوراً على الأحكام الشرعية الفقهية الفرعية والحديث عنها في باب القياس فقط؛ بل تعداه إلى معالجة القضايا الفقهية المعاصرة، وقد كان "مقصد حفظ البيئة" مثلاً عليها.

ومن القضايا التي ترى الباحثة ضرورة توعية أفراد المجتمع بها، تلك العلاقة التلازمية بين حقيقة الاستخلاف ورعاية البيئة التي تعد أهم دعائم عملية إعمار الأرض، ومنها أيضاً نشر ثقافة البيئة وسبل رعايتها والتزام أخلاقياتها بالطرق والكيفيات الصحيحة. ولما كانت أزمة البيئة نابعة بالأساس من أنانية الإنسان عند استخدامه لها، فإن من الضروري التوعية بمسؤولية الإنسان الأخلاقية تجاه بيئته بالحفاظ عليها، واستثمار مواردها على نحو عقلائي، عن طريق نشر التربية البيئية في الأوساط التعليمية ابتداء من المدارس الابتدائية، إلى التكميليات والثانويات والجامعات بخاصة، وبين أفراد المجتمع من خلال قيام وسائل الإعلام ومنابر المساجد، وأنشطة الجمعيات الحكومية، وغير الحكومية بالكشف عن الأثر السلبي لما يستحدثه الإنسان من علوم متطورة على بروز مشكلات البيئة، وطرق معالجة هذه المشكلات.